المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ (طَوْرٌ جَدِيدٌ)

إن صلح الحديبية كان بداية طور جديد فى حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها فى عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة قريش وغطفان واليهود.

ولما كانت قريش ممثلة الوثنية وزعيمتهم في ربوع جزيرة العرب وزعيمتهم انخفضت حدة شاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير؛ ولذلك لا نرى لغطفان استفزازًا كبيرًا بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود.

أما اليهود فكانوا قد جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرًا للدس والتآمر، وكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ وتؤجج نار الفتنة، وتغرى الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبى ﷺ والمسلمين أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم؛ ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبى ﷺ بعد هذا الصلح هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر.

ثم إن هذه المرحلة التى بدأت بعد الصلح أعطت المسلمين فرصة كبيرة لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين فى هذا المجال وبرز نشاطهم فى هذا الوجه على نشاطهم العسكرى، ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة إلى قسمين:

١- النشاط فى مجال الدعوة أو مكاتبة الملوك والأمراء.

٢- النشاط العسكرى.

٣- وقبل أن نتابع النشاط العسكرى فى هذه المرحلة نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء؛ إذ الدعوة الإسلامية هى المقدمة طبعًا بل ذلك هو الهدف الذى عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام والحروب والفتن والقلاقل والاضطرابات[1].

مُكَاتَبَةُ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ:

روى ابن سعد فى طبقاته أنه ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٠٣.

هجرية ، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب إليهم كتبا . .

فقيل: يا رسول الله: إن الملوك لا يقرؤن كتابًا إلا مختومًا ؛ فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتمًا من فضة ، نقشه ثلاثة أسطر: وختم به الكتب فخرج ستة نفر من يوم واحد .

الله
رسول
محمد

وذلك فى المحرم سنة سبع ، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم[1] .

وفيما يلى نصوص من هذه الكتب وبعض ما تمخضت عنه .

١- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ (مَلِكَ الحَبَشَة) :

وهذا النجاشى اسمه أصحمة بن الأبجر ، كتب إليه النبى ﷺ مع عمرو بن أمية الضمرى فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد: «**فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة؛ فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ﷺ وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت، ونصحت فاقبل نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى**» .

ذكر الواقدى وغيره أنه أسلم وشهد شهادة الحق ، قال الإمام ابن القيم:

وليس كما قال هؤلاء ؛ فإن أصحمة النجاشى الذى صلى عليه رسول الله ﷺ ليس هو الذى كتب إليه ، هذا الثانى لا يُعرف إسلامه بخلاف الأول ؛ فإنه مات مسلمًا ، وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث قتادة عن أنس قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشى وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه رسول الله ﷺ ، وقال أبو محمد بن حزم: إن هذا النجاشى الذى بعث إليه

---

(١) فقه السيرة للبوطي (٢٦٣ - ٢٦٤) .

رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمرى لم يسلم[١] .

٢- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى كِسْرَى (مَلِك فَارِس) :

كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك فارس:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشـــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام فإني أنـــا رسول الله إلى الناس كافة؛ لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

١- واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي ، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين ، ولا ندرى هل بعث به عظيم البحرين رجلاً من رجالاته أم بعث عبد الله السهمى ، وأيًّاما كان فلما قُرئ الكتاب على كسرى مزقه ، وقال فى غطرسة: عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه» وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به ، فاختار باذان رجلين ممن عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمر أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدم المدينة وقابلا النبى ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثنى إليك لتنطلق معى ، وقال قولاً توعده فيه ، فأمرهما النبى ﷺ أن يلاقياه غدًا .

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد ن داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع ، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحى فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك ، فقالا: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر ، أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك ، قال: نعم أخبراه ذلك عنى ، وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهى إلى منتهى

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٤٥٨ - ٤٥٩ .

الخف والحافر ، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء" .

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له سيرويه في كتابه: فلا تهجه ؛ حتى يأتيك أمرى .

وكان ذلك سببًا فى إسلام باذان ، ومن معه من أهل فارس باليمن[1] .

٣- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى قَيْصَر (مَلِك الرُّوم) :

وكتب النبي ﷺ إلى قيصر الروم واسمه هرقل وأرسل إليه الكتاب مع الصحابي الجليل دحية الكلبي رضى الله عنه عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سُفْيَانَ مِنْ فِيهِ إِلَى فِيَّ قَالَ:

انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ قَالَ وَكَانَ دَحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ قَالَ فَقَالَ هِرَقْلُ هَلْ هَا هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالُوا نَعَمْ قَالَ فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ فَأُجْلِسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللَّهِ لَوْلا أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الْكَذِبَ لَكَذَبْتُ ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قَالَ: قُلْتُ لا قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ: قُلْتُ: لا قَالَ: أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ: يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ لا بَلْ يَزِيدُونَ قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ لا قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالاً يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ قُلْتُ: لا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ قَالَ: فَهَلْ قَالَ

(١) الرحيق المختوم ٣٠٧ - ٣٠٨ .

هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لا ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ فَزَعَمْتَ أَنْ لا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ فَقُلْتَ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَزَعَمْتَ أَنْ لا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لا وَكَذَلِكَ الايمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يُزِيدُونَ وَكَذَلِكَ الايمَانُ حَتَّى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالاً يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لا يَغْدِرُ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ قَالَ ثُمَّ قَالَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ قَالَ قُلْتُ يَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعَفَافِ قَالَ إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا فَإِنَّهُ نَبِيٌّ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ قَالَ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ: «**فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الاسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ** وَ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ ارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا قَالَ فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[1] إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلامَ[2].

---

(١) أي: اشتد أمره، وأبو كبشة هو جد النبي ﷺ من جهة الأم، وكان مشركًا، فذهب إلى الشام فتنصر، فلما خالف النبي ﷺ دين قريش وجاء بالحنيفية شبهوه به ونسبوه إليه للتعيير.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٤٦١ - ٤٦٢.

٤- كتابه ﷺ إلى المقوقس (ملك مصر) :

وكتب النبى ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط»، ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل حاطب على المقوقس ، قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم لأنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس: إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه ، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبى أدرك قومًا فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبى ﷺ ، فجعله فى حُقٍّ من عاج ، وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتبًا له بالعربية فكتب إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد:

فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيًّا بقى ،

وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك.

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية وسيرين، والبغلة دُلْدُل بقيت إلى زمن معاوية واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له، وهى التى ولدت له إبراهيم، وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصارى[1].

٥- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى الحَارِثِ الغَسَّانِي (صَاحِبِ دِمَشْق):

كتب إليه النبى ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك».

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب قال: من ينزع ملكى منى، أنا سائر إليه، ولم يُسلم[2].

٦- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى هَوْذَةَ بنِ عَلِيٍّ (صَاحِبِ اليَمَامَة):

وكتب النبى ﷺ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن على، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك».

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامرى، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختومًا أنزله، وقرأ عليه فرد عليه ردًّا دون رد، وكتب إلى النبى ﷺ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطًا بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره، فقرأ النبى ﷺ كتابه فقال: **«لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما فى يديه»** فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال النبى ﷺ: **«أما**

---

(١) الرحيق المختوم ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٦٤.

إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبئ يقتل بعدى» فقال قائل: يا رسول الله ﷺ من يقتله؟ فقال: **«أنت وأصحابك، فكان كذلك»**.

٧- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى المُنْذِرِ بنِ سَاوِي (حَاكِمِ البَحْرَيْنِ):

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابًا؛ يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ.

أما بعد يا رسول الله ﷺ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث إليَّ فى ذلك أمرك.

فكتب إليه رسول الله ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أما بعد: فإنى أذكرك الله - عز وجل- فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطيع رسلى ويتبع أمرهم، فقد أطاعنى، ومن نصح فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرًا، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فإن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية».

٨- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى مَلِكِ عُمَانَ:

وكتب النبى ﷺ كتابًا إلى ملك عمان جَيْفَر وأخيه عبد ابنى الجُلَنْدَى ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوكم بدعاية الإسلام، أسلما تسلما؛ فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيًّا، ويحق القول على الكافرين؛ فإنكما إن أقررتما بالإسلام، وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص - رضى الله عنه- قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين وأسهلهما

خلقًا- فقلت: إنى رسول الله ﷺ إليك وإلى أخي ، فقال: أخى المقدم عليٌّ بالسن ، والملك وأنا أوصلك إليه ؛ حتى يقرأ كتابك ، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة ، قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه ؛ حتى هدانى الله للإسلام .

قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا ، فسألنى أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشى وأخبرته أن النجاشى قد أسلم ، قال: وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه ، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه ، قلت: نعم ، قال: فانظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب ، قلت: ما كذبت ، وما نستحله فى ديننا ، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى ، قلت: بلى ، قال: فبأى شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشى يخرج له خرجًا ؛ فلما أسلم وصدق محمد ﷺ ، قال: لا والله لو سألنى درهمًا واحدًا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له: البناق أخوه ، أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا ، ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا ، قال هرقل: رجل رغب فى دين ، فاختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى ، لصنعت كما صنع ، قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك .

قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، قال: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه لو كان أخي يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ نصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا ، قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم ، قال: إن هذا لخلق حسن ، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال ؛ حتى انتهيت إلى الإبل ، قال عمرو: وتؤخذ فى سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد الماء ، فقلت: نعم ، فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا .

قال: فمكث ببابه أيامًا ، وهو يصلى إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يومًا

فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعى ، فقال: دعوه ، فأرسلت فذهبت ؛ لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختومًا ، ففض خاتمه ، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأ مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه ؛ إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف ، قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدًا بقى غيرك فى هذه الحرجة وأنت أن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال: دعنى يومى هذا ، وارجع إلىَّ غدًا .

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضنَّ بملكه ؛ حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه ، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما فى يدى ، وهو لا تبلغ خيله ها هنا ، وإن بلغت خيله لقيت قتالاً ، ليس كقتال من لاقى ، قلت: أنا خارج غدًا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلىَّ فأجاب إلى الإسلام هو أخوه جميعًا ، وصدقا النبىﷺ وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونًا على من خالفنى[1] .

مِنْ نَتَائِجِ إِرْسَالِ الكُتُبِ إِلَى المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ:

أظهر الرسولﷺ في سياسته الخارجية دراسة سياسية فاقت التصور ، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء ، كما أظهرﷺ قوة وشجاعة فائقتين ؛ فلو كان غير رسول اللهﷺ لخشى عاقبة ذلك الأمر ، لا سيما أن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس ، ولكن حرص رسول اللهﷺ وعزيمته على إبلاغ دعوة الله وإيمانه المطلق بتأييد الله سبحانه وتعالى ، كل ذلك دفعه ؛ لأن يقدم على ما أقدم عليه وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:

---

(١) الرحيق المختوم ٣١٠ - ٣١٣ ، سيرة الرسول أبو عمار ٤٦٤ - ٤٦٧ .

أ- وطد الرسول ﷺ بهذه السياسة أسلوبًا جديدًا فى التعامل الدولى لم تكن تعرفه البشرية من قبل .

ب- أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها ، وفرضت وجودها على الخارطة الدولية لذلك الزمان .

ج- كشفت للرسول ﷺ نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه ، وحكمهم على دعوته .

د- كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيرًا عمليًّا على عالمية الدعوة الإسلامية ؛ تلك العالمية التى أوضحتها آيات نزلت فى العهد المكى مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وهكذا فإن رسائل النبى ﷺ إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تعتبر نقطة تحول فى سياسة دول الرسول الخارجية ، فعظم شأنها وأصبحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول وذلك قبل فتح مكة كما أن هذه السياسة مهدت لتوجيه الرسول ﷺ لسائر أنحاء بلاد العرب فى عام الوفود[1] .

العِبَرُ وَالعِظَاتُ وَالدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ:

إن في قصة الكتب التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء دلالات ودروسًا كثيرة نذكر منها ما يلى:

١- يدل عمل النبى ﷺ على أنه ينبغى على المسلمين أن يهيؤا للدعوة الإسلامية فى كل أرجاء الأرض وسائلها وأسبابها ، ومن أهم الأسباب ذلك المعرفة بلغة الأمم والأقوام الذين يقومون بدعوتهم إلى الإسلام ، وتعريفهم بمبادئه وأحكامه ، وهذا ما فعله النبى ﷺ فقد اختار رسلاً ، يجيد كل واحد منهم لغة القوم الذين بعثه إليهم .

٢- ويدل أيضًا عمله ﷺ هذا - مع ملاحظة التوقيت الذى جاء فيه- على أن يقوموا أولاً بمسئولية الدعوة فيما بينهم ، وأن يصلحوا من أنفسهم ؛ حتى إذا قطعوا من ذلك شوطًا كبيرًا ، وفرغوا من تطبيق الإسلام على حياتهم

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤١٣ / ٤١٤) .

وسلوكهم، آن لهم حينئذ أن يقوموا بهذا الواجب الثانى، وقد كان النبىﷺ قادرًا أن يرسل عددًا من أصحابه إلى هؤلاء الرؤساء والملوك قبل هذا التاريخ بكثير، غير أن ذلك ينطوى على الإخلال بهذا الواجب الذى ذكرناه، وينبغى أن نعلم أن إصلاح المسلمين أنفسهم هو بنفسه جزء عظيم من دعوة غيرهم إلى الإسلام، فالناس كانوا ولا يزالون يبحثون عن العمل الصالح فى السلوك والخلق؛ ليقتفوا أثره ويتبعوه، ولو أن المسلمين اليوم كانوا معتزين بإسلامهم مطبقين مبادئه وأحكامه لرأيت ذلك الشعاع الهادى متوغلاً بضيائه فى مجاهل إفريقيا وأقاصى أوروبا[1].

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٦٨.

obeikandl.com

غَزْوَةُ خَيْبَر

تَارِيخُهَا وَأَسْبَابُهَا :

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ، ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر كان ذلك فى السنة السابعة للهجرة[١] .

لما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة وهو قريش ، وأمن منه تمامًا بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين ؛ اليهود وقبائل نجد حتى يتم الأمن والسلام ويسود الهدوء فى المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هى وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولاً .

أما كون خيبر بهذه الصفة فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى- وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال ، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محن متواصلة ؛ حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى ﷺ وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين مثل سلام بن أبى الحقيق وأسير بن زارم ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك ؛ وإنما أبطأوا فى القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهى قريش- كانت مجابهة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين واقترب لهم يوم الحساب[٢] .

وقد تضمنت سورة الفتح التى نزلت بعد الحديبية وعدًا إلهيًّا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ

---

(١) ابن هشام ٢ / ٨٢ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣١٦ .

ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفتح: ٢٠] (١) .

عَدَدُ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلا: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح: ١٥] .

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة ، واستعمل على المدينة سِباع بن عُرْفُطة الغفارى ، وقال ابن إسحاق: نُمَيلة بن عبد الله الليثى والأول أصح عند المحققين .

وبعد خروجه ﷺ قدم أبو هريرة المدينة مسلمًا ، فوافى سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهمانهم(٢) .

اتِّصَالُ المُنَافِقِينَ بِاليَهُودِ:

وقد قام المنافقون يعلمون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر: إنَّ محمدًا قصد قصدكم ، وتوجه إليكم فخذوا حذركم ، ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون عزّل لا سلاح معهم إلا قليل ، فلما علم ذلك أهل خيبر أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ومظاهرين لهم على المسلمين ، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين(٣) .

مَسِيرُ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ إِلَى خَيْبَر:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربى ، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة فطلب

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٤) .

(٢) الرحيق المختوم ٣١٦ - ٣١٧ .

(٣) الرحيق المختوم ص ٣١٧

منهم النبى ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً ﷺ[١]: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»[٢].

وسلك رسول الله ﷺ فى اتجاه نحو خيبر على جبل عصر[٣] ثم على الصهباء، ثم أقبل ﷺ بجيشه حتى نزل بوادى يقال له: الرجيع فنزل بينهم وبين غطفان؛ ليحول بينهم وبين أن يمدو أهل خيبر، ولما سمعت غطفان بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه؛ حتى إذا كانوا ببعض الطريق سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسًّا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر[٤].

وكانت خطة مباركة من النبي ﷺ استطاع بها عزل يهود خيبر عن حلفاء المشركين.

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان اسم أحدهما حسيل- ليدلاه على الطريق الأحسن؛ حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أى جهة الشام- فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشمال كما يحول بينهم وبين غطفان.

قال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة، وقال: يا رسول الله ﷺ، هذه طرق يمكن الوصول إلى كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسيها له واحدًا واحدًا، قال: اسم واحد منها حزن فأبى النبى ﷺ من سلوكه، وقال اسم الآخر شاش فامتنع منه أيضًا، ووقال اسم آخر حاطب، فامتنع منه أيضًا، قال حسيل: فما بقى إلا واحد، قال عمر: ما اسمه؟ قال: مرحب، فاختاره النبى ﷺ سلوكه[٥].

بَعْضُ مَا وَقَعَ فِي الطَّرِيقِ:

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ لِعَامِرِ بْنِ الأَكْوَعِ: أَلا تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ قَالَ: وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ:

---

(١) رواه البخاري ٦٣٨٤.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٤).
(٣) عصر: بالكسر، ويقال بالتحريك، والأول أشهر وأكثر.
(٤) ابن هشام ٢ / ٨٤.
(٥) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٧٧.

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا
وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا
وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [1]: «مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟ قَالُوا عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ، فَقَالَ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْلا أَمْتَعْتَنَا بِهِ».

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد، وقد وقع ذلك في حرب خيبر.

١- وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء وهى من أدنى خيبر صلى العصر ثم دعا بالأزواد فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به فثرى فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمض الصحابة، ثم صلى ولم يتوضأ ثم صلى العشاء.

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: «قفوا» فوقف الجيش فقال: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين السبع وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين أسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا، بسم الله» [2].

الجيْشُ الإسْلامِي إلى أسْوَارِ خَيْبَر:

وبات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريبًا من خيبر ولا تشعر بهم اليهود وكان النبي ﷺ إذا أتى قوما بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح الفجر بغلس وركب المسلمون فخرج أهل خيبر بمساحيهم، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ قَالَ فَخَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلاً فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا رَكِبَ وَرَكِبْتُ خَلْفَ أَبِي طَلْحَةَ وَإِنَّ قَدَمِي لَتَمَسُّ قَدَمَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فَخَرَجُوا إِلَيْنَا بِمَكَاتِلِهِمْ [3] وَمَسَاحِيهِمْ [4] فَلَمَّا رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ

(١) رواه البخاري ٦١٤٨.
(٢) الرحيق المختوم ٣١٧ - ٣١٨، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٤ - ٣٨٥).
(٣) المكاتل: جمع مكتل وهو المقطف الكبير.
(٤) المساحي: مفردها مسحاة، وهي المجرفة من الحديد.

وَالْخَمِيسُ[١] قَالَ فَلَمَّا رَآهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ» .

حُصُونُ خَيْبَر:

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ؛ شطر فيها خمسة حصون:

١- حصن ناعم . ٢- حصن الصعب بن معاذ .

٣- حصن قلعة الزبير . ٤- حصن أُبَيّ .

٥- حصن النِّزار .

والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع فى منطقة يقال لها: (النطاة) وأما الحصنان الآخر فيقعان فى منطقة تسمى بالشَّقّ .

أما الشطر الثانى ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط:

١- حصن القَمُوص (وكان حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير) .

٢- صن الوَطِيح . ٣- حصن السُّلالم .

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها ، والقتال المدبر إنما دار فى الشطر الأول منها ، أما الشطر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال[٢] .

مَشُورَةُ حُبَاب بن المُنْذِر:

وكان النبى ﷺ اختار لمعسكره منزلاً ، فأتاه حباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى فى الحرب؟ قال: «**بل هو الرأي**» فقال: يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدًّا من حصن (نطاة) وجميع مقاتلى خيبر فيها ، وهم يدرون أحوالنا ، ونحن لا ندرى أحوالهم وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضًا هذا بين النخلات ، ومكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرًا قال ﷺ : «**الرأى ما أشرت**» ثم تحول إلى مكان آخر[٣] .

---

(١) الخميس: الجيش .

(٢) الرحيق المختوم ٣١٨ - ٣١٩ .

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٨٠ .

الاستعداد للقتال:

ولما كانت ليلة الدخول وقيل بل بعد عدة محاولات فقد أخذ أبو بكر اللواء فرجع ولم يفتح له[١] فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقِيلَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٢].

تساقط حصون خيبر:

حصن ناعم:

وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف، خرج على بن أبى طالب رضى الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة وبرزوا إلى المسلمين، ومعهم ملكهم مرحب فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة.

قَالَ سلمة بن الأكوع: فَلَمَّا أَتَينَا خَيْبَرَ قَالَ: خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ وَيَقُولُ[٣]:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

قَالَ: وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ فَقَالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرٌ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُغَامِرٌ

قَالَ: فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي تُرْسِ عَامِرٍ وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ قَالَ سَلَمَةُ فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ

---

(١) ابن هشام ٢ / ٨٩.

(٢) الرحيق المختوم ص ٣١٩.

(٣) رواه مسلم ١٨٠٧.

أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ قَتَلَ نَفْسَهُ قَالَ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ قَالَ ذَلِكَ قَالَ قُلْتُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ قَالَ كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدُ فَقَالَ لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَسَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ» .

وَخَرَجَ مَرْحَبٌ فَقَالَ قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ فَقَالَ عَلِيٌّ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قَالَ: فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ .

ولما دنا علي رضى الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن ، وقال: من أنت؟ فقال: أنا على بن أبى طالب ، فقال اليهودى: علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخو مرحب ، وهو يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه: يا رسول الله يقتل ابنى ، قال: "بل ابنك يقتله" فقتله الزبير .

ودار القتال المرير حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا ، لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

حِصْنُ الصَّعْبِ بنِ مُعَاذٍ:

وكان حصن الصعب بن معاذ الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .

روى ابن إسحاق أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء ، فقال: «**اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدى شيء**

أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنَاء، وأكثرها طعامًا وودكًا» [1] فغدا الناس ففتح الله - عز وجل- حصن الصعب بن معاذ وما بخيبر حصن كان أكثر طعامًا وودكًا منه .

ولما ندب النبى ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن ، ثم فتح الحصن فى ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التى ورد ذكرها فى رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ؛ فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

قَلْعَةُ الزُّبَيْر :

وبعد حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النَّطاة إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع فى رأس قُلَّة[2] لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار وأقام محاصرًا ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود وقال: يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض يخرجون الليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم ، أصحروا لك فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود وافتتحه رسول الله ﷺ .

قَلْعَةُ أُبَيٍّ:

وبعد فتح قاعة الزبير انتقل اليهود إلى قاعة أبى وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمون عليهم الحصار ، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلهما أبطال المسلمين وكان الذى قتل المبارزة الثانى هو البطل المشهور أبو دُجَانة سِمَاك بن حَرَشَةَ الأنصاري صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة واقتحم معه الجيش الإسلامى ، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن ، ثم تسلل

---

(١) الودك: دسم اللحم .

(٢) قلة: قمة الجبل .

اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى الشطر الأول .

حِصْنُ النزار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل ؛ ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء ، بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة .

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ويكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع ، لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه .

أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن للاشتباك مع قوات المسلمين ، ولكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين قذفوا به القذائف ، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، ويبدو أن المسلمين قذفوا به القذائف ، فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن واقتحموه ، ودار قتال مرير فى داخل الحصن انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر ، وهى ناحية النَّطاة والشّقّ وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذه الحصون ، وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر .

فَتْحُ الشّطْرِ الثّانِي مِنْ خَيْبَر:

ولما أتم رسول الله ﷺ فتح ناحية النَّطاة والشقّ تحول إلى أهل الكتيبة التى بها حصن القَمُوص: حصن بنى أبى الحُقَيْق من بنى النضير ، وحصن الوَطِيح والسَّلالم ، وجاءهم كل فلّ كان انهزم من النطاة والشق وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازى هل جرى هناك قتال فى أى حصن من حصون الثلاثة أم لا؟ فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص ، بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام .

أما الواقدى فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاث ؛ إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال ، وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال مهما كان ، فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة- فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يومًا ، واليهود لا يخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح[١] .

وَبِذَلِكَ تَمَّ فَتْحُ خَيْبَر :

وأرسل ابنُ أبى الحقيق إلى رسول الله ﷺ انزل فأكلمك؟ فقال رسول الله ﷺ : «**نعم**» فنزل ابن أبى الحقيق فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلُّون بين رسول الله ﷺ وبين ماكان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء[٢] والكراع[٣] والحلقة[٤] فقال رسول الله ﷺ : «**وبرئت منكم ذمة الله ورسوله إن كتمتمونى شيئًا**» فصالحوه على ذلك .

وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين وبذلك تم فتح خيبر[٥] .

قَتْلُ ابْنَي أَبِي الحقيقِ لِنَقْضِ العَهْدِ :

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبى الحقيق مالاً كثيرًا غيبا مسكًا[٦] فيه مال وحُلى لحيى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بنى النضير فسأله عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال: إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة ، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «**أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟**» قال: نعم ، فأمر بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله عما بقى

---

(١) الرحيق المختوم ٣٢٠ - ٣٢٢ .
(٢) الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة .
(٣) الكراع: الخيل .
(٤) الحلقة: السلاح .
(٥) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٩٠ .
(٦) الرحيق المختوم ص ٣٢٣ .

فأبى أن يؤذيه فدفعه إلى الزبير وقال: عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن سلمة فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة، وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم، ألقى عليه الرحى، وهو يستظل بالجدار فمات، وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابنى أبى الحقيق، وكان الذى اعترف عليها بإخفاء المال هو ابن عم كنانة[1].

تَقْسِيمُ الغَنَائِمِ:

كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضى والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ أن الغنائم تتكون من:

١- الطعام: فقد غنم المسلمون كثيرًا من الأطعمة من حصون خيبر فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن وغير ذلك، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة ولم يخمسها.

٢- الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم لقد أخذ رسول الله ﷺ خمسًا ووضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

٣- السبى: لقد سبى رسول الله ﷺ كثيرًا من نساء اليهود، ووزع السبى على المسلمين فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

٤- أما الأراضى والنخيل فقد قسمها النبى إلى ستة وثلاثين سهمًا؛ جمع لكل سهم مائة سهم فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الأخر وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين.

٥- وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردها فأمر ﷺ بتسليمها إليهم ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم ولا ما صنع النصارى فى حروب اضطهاد

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٢٣.

اليهود فى الأندلس حين أحرقوا - كذلك- صحف التوراة [١] .

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخارى ، عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر ، وما رواه عن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر ، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل [٢] .

قُدُومُ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ وَالأَشْعَرِيِّينَ:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر ؛ فتلقاه النبي ﷺ وقبل جبهته ، وقال: «**والله ما أدري بأيهما ألفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**» وكان ﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي ، عمرو بن أمية الضمري فحملهم فى سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر ، وقد رافق جعفر فى قدومه أبو موسى الأشعرى ومن كان بصحبته من الأشعريين .

وقد أشركهم النبى ﷺ فى مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة - رضى الله عنهم- الذين شاركوا فى فتحها [٣] .

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِصَفِيَّة:

كان من بين السبايا صفية بنت حيي بن أخطب وقد قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره ، ولما جمع النبي السبي جَاءَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنْ السَّبْيِ ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً**» فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ لا تَصْلُحُ إِلا لَكَ قَالَ: «**ادْعُوهُ بِهَا**» فَجَاءَ بِهَا فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ خُذْ جَارِيَةً مِنْ السَّبْيِ غَيْرَهَا قَالَ: فَأَعْتَقَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَتَزَوَّجَهَا فَقَالَ لَهُ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ: نَفْسَهَا أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ بِالطَّرِيقِ جَهَّزَتْهَا لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ فَأَهْدَتْهَا لَهُ مِنْ اللَّيْلِ فَأَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ عَرُوسًا فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَجِئْ بِه**» وَبَسَطَ نِطَعًا فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالتَّمْرِ وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالسَّمْنِ قَالَ وَأَحْسِبُهُ قَدْ ذَكَرَ السَّوِيقَ قَالَ فَحَاسُوا

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٩٢) .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٢٤ .

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٩٠ - ٣٩١) .

حَيْسًا فَكَانَتْ وَلِيمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [١]، ورأى رسول الله ﷺ بوجهها خضرة فقال: ما هذا؟ قالت: يا رسول الله رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه وسقط في حجري، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئًا فقصصتها على زوجي فلطم وجهي، فقال: تمنين هذا الملك الذي بالمدينة[٢].

الشَّاةُ المَسْمُومَةُ:

فلما اطمأن رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم شاة مصلية[٣] مسمومة، وأكثرت من السم في ذراع الشاة لما عرفته أن الرسول يؤثرها، وقد تناول النبي مضغة منها فلاكها ثم لفظها وهو يقول: «**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**» وكان معه بشر بن البراء فأساغ اللحم وازدرده، فجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت وقالت: بلغت من قومي ما لا يخفى عليك فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيخبر فتجاوز عنها النبي ثم مات بشر بعد ما سرى السم في جسمه[٤]. فقيل: اقتص له منها، وقيل بل أسلمت وعفا عنها.

واختلفت الروايات في التجاوز عنها وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولاً؛ فلما مات بشر دفعها إلى أوليائه فقتلوها قصاصًا[٥]..

قَتْلَى الفَرِيقَيْنِ:

بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، بينما استشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي[٦].

١ـ فَدَكُ:

لما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله - تعالى- بأهل خيبر فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فَدَك

---

(١) رواه البخاري ٣٧١.
(٢) الرحيق المختوم ٣٢٤ - ٣٢٥.
(٣) شاة مصلية: مشوية.
(٤) ابن هشام ٢ / ٩٢.
(٥) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٩٦.
(٦) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٨ - ٣٨٩).

فقبل ذلك منهم ؛ فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ؛ لأنه لم يوجف[١] عليها بخيل ولا ركاب[٢] .

٢ـ وَادِي القُرَى:

ثم انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود وقد انضاف إليهم جماعة من العرب فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمي وهم على غير تعبئة ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلا فِضَّةً إِلا الأَمْوَالَ وَالثِّيَابَ وَالْمَتَاعَ فَأَهْدَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ يُقَالُ لَهُ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُلامًا يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ فَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَادِي الْقُرَى حَتَّى إِذَا كَانَ بِوَادِي الْقُرَى بَيْنَمَا مِدْعَمٌ يَحُطُّ رَحْلاً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَقَالَ النَّاسُ هَنِيئًا لَهُ الْجَنَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**كَلا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنْ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ النَّاسُ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ**».

فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفهم ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة وراية إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز ثان فقتله ، ثم برز ثالث فقتله ، ثم برز آخر فقتله فبرز إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه فقتله ؛ حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام ، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم فيصلى بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله فقاتلهم ؛ حتى أمسوا وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح ؛ حتى أعطوا ما بأيديهم وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا ، وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى ، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود وعاملهم عليها[٣] .

---

(١) يوجف: يجتمع .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٠٢ .

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٥٠٦ - ٥٠٧ .

٣- تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر، ثم فدك ووادى القرى لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم وكتب لهم بذلك كتابًا، وهاك نصه: هذا كتاب محمد رسول الله ﷺ لبنى عاديا: إن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء الليل مد، والنهار شد، وكتب خالد بن سعيد[١].

العَوْدَةُ إلَى المدِينَة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَفَلَ مِنْ غَزْوَةِ خَيْبَرَ سَارَ لَيْلَهُ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْكَرَى عَرَّسَ وَقَالَ لِبِلال: «اكْلأْ لَنَا اللَّيْلَ فَصَلَّى بلالٌ مَا قُدِّرَ لَهُ وَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَلَمَّا تَقَارَبَ الْفَجْرُ اسْتَنَدَ بلالٌ إِلَى رَاحِلَتِه مُوَاجِهَ الْفَجْرِ فَغَلَبَتْ بِلالاً عَيْنَاهُ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى رَاحِلَتِه فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلا بلالٌ وَلا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِه حَتَّى ضَرَبَتْهُمْ الشَّمْسُ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَهُمْ اسْتِيقَاظًا فَفَزِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَيْ بِلالُ فَقَالَ بِلالٌ أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ بِنَفْسِكَ قَالَ اقْتَادُوا فَاقْتَادُوا رَوَاحِلَهُمْ شَيْئًا ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ بلالاً فَأَقَامَ الصَّلاةَ فَصَلَّى بِهِمْ الصُّبْحَ فَلَمَّا قَضَى الصَّلاةَ قَالَ مَنْ نَسِيَ الصَّلاةَ فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]»[٢].

سَرِيَّةُ أَبان بن سَعِيد:

كان النبى ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكرى أن إخلاء المدينة تمامًا بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة؛ ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة إبان بن سعيد، بينما كان هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبا عليه فوافى النبى ﷺ بخيبر وقد افتتحها.

والأغلب أن هذه السرية كانت فى صفر سنة ٧هـ، وقد ورد ذكرها فى البخارى

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٠٧.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٠٧.

قال ابن حجر: لم أعرف حال هذه السرية[١].

العِبَرُ والعِظَاتُ:

إن غزوة خيبر تختلف عن الغزوات السابقة، فقد كانت الغزوات السابقة قائمة على أسباب دفاعية، اقتضت المسلمين أن يدافعوا بها عن وجودهم، وأن يردوا بها هجمات أعدائهم، أما غزوة خيبر فهي أول غزوة تأتي بعد وقعة بني قريظة وصلح الحديبية، وهي تدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت في مرحلة جديدة بعد صلح الحديبية.

فغزوة خيبر أول غزوة بدأها النبي ﷺ وأغار بها فجأة على اليهود الذين استوطنوا بقاع خيبر، دون أن يبدأوا المسلمين بأي محاربة أو قتال.

لقد كان السبب الوحيد لها هو دعوة اليهود إلى الإسلام ومحاربتهم على كفرهم وعنادهم عن قبول الحق[٢].

المُعْجِزَاتُ الَّتِي أَيَّدَ اللَّهُ بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ:

إن في هذه الغزوة حادثتين تعدان من الخوارق العظيمة التي أيد الله بها محمدًا ﷺ:

١- أنه ﷺ تفل في عينين علي - رضي الله عنه- وقد كان يشتكي منها فبرأت في الوقت نفسه؛ حتى كأن لم يكن به وجع.

٢- ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها ولأمر ما سبق قضاء الله - تعالى- فابتلع بشر بن البراء لقمته قبل أن ينطق رسول الله ﷺ بأنها مسمومة، فكان قضاؤه في ذلك.

ولعل في ذلك مزيدًا من بيان ما اختص الله - تعالى- به نبيه ﷺ من الحفظ والعصمة من أيدي الناس وكيدهم؛ تنفيذًا لوعده جل جلاله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة: ٦٧][٣].

* * *

(١) الرحيق المختوم ص ٣٢٧.

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) فقه السيرة للبوطي ٢٦٢ - ٢٦٣.

بَقِيَّةُ السَّرَايَا فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ

بعث رسول الله ﷺ عدة سرايا بعد رجوعه من غزوة خيبر، وهاك بعض تفصيلها:

١ـ سَرِيَّةُ غَالِب بن عَبْدِالله اللَّيْثِي إِلَى بَنِي المُلَوِّح بِقُدَيْد:

فى صفر أو ربيع الأول سنة ٧هـ، كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سُوَيد، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر فشنوا الغارة فى الليل؛ فقتلوا من قتلوا وساقوا النعم وطاردهم جيش كبير من العدو حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين، ونجح المسلمون فى بقية الانسحاب.

٢ـ سَرِيَّةُ عُمَر بن الخَطَّاب إِلَى تُرَبَة:

فى شعبان سنة ٧هـ، ومعه ثلاثون رجلاً؛ كانوا يسيرون الليل ويستخفون فى النهار، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحدًا، فانصرف راجعًا إلى المدينة.

٣ـ سَرِيَّةُ بَشِير بن سَعْدٍ الأَنْصَارِيِّ إِلَى بَنِي مُرَّةَ بِنَاحِيَةِ فَدَكَ:

في شعبان سنة ٧هـ فى ثلاثين رجلاً، خرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل فرموهم بالنبل؛ حتى فنى نبل بشير وأصحابه فقتلوا جميعًا إلا بشير، فإنه ارتُثَّ [1] إلى فدك، فأقام عند يهود؛ حتى برأت جراحه فرجع إلى المدينة.

٤ـ سَرِيَّةُ غَالِب بن عَبْدِالله اللَّيْثِي:

فى رمضان سنة٧هـ إلى بنى عُوَال وبنى عبد بن ثعلبة بالمَيْفَعَة، وقيل: إلى الحُرَقات من جُهَيْنة فى مائة وثلاثين رجلاً، فهجموا عليهم جميعًا، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعما وشاء، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد رضى الله عنه نَهِيكَ بن مِرْدَاس؛ فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً فَقَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَقَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟**» قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلاحِ قَالَ: «**أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أصادق هو أم كاذب؟**».

---

(١) ارتث: حمل من المعركة جريحًا.

٥ـ سَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بنِ رَوَاحَةَ إِلَى خَيْبَر:

فى شوال سنة٧هـ فى ثلاثين راكبًا ، وذلك أن أسير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو المسلمين فأخرجوا أسيرًا فى ثلاثين من أصحابه ، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقَرْقَرة نِيَار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين ، ذكر الواقدى هذه السرية فى شوال سنة ست قبل خيبر بأشهر .

٦ـ سَرِيَّةُ بَشِير بنِ سَعْدٍ الأَنْصَارِيِّ إِلَى يَمَن وجَبار:

بالفتح ، أرض لغطفان ، وقيل: لفزازة وعُذْرة فى شوال سنة٧هـ فى ثلاثمائة من المسلمين ؛ للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير هربوا ، وأصاب بشير نعمًا كثيرة ، وأسر رجلين فقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما .

٧ـ سَرِيَّةُ أَبِي حَدْرَد الأَسْلَمِيِّ إِلَى الغَابَةِ:

ذكرها ابن القيم فى سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء وملخصها: أن رجلاً من جُشَم بن معاوية أقبل فى عدد كبير إلى الغابة ، يريد أن يجمع قيسًا على محاربة المسلمين ، فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين ؛ ليأتوا منه بخبر وعلم ، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس ، فكمن أبو حدرد فى ناحية ، وصاحباه فى ناحية أخرى ، وأبطأ على القوم راعيهم ؛ حتى ذهبت فحمة العشاء فقام رئيس القوم وحده ، فلما مر بأبى حدرد رماه بسهم فى فؤاده فسقط ، ولم يتكلم فاحتز أبو حدرد رأسه ، وشد فى ناحية العسكر ، وكبر وكبر صاحباه وشدا ، فما كان من القوم إلا الفرار ، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم[1] .

* * *

(١) الرحيق المختوم ٣٣٠ - ٣٣١ .